مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 06 العدد 02 جوان 2023 ص ص 657ـ674
ر ت م د (ISSN): 2602ـ618X / ر ت م د إ (E-ISSN): 2710ـ8031

سؤال التواصل ين المفكرين المغاربة المعاصرين

Modern Magrebians Thinkers; the communcation issue

رقاد بغدادي [1]◆ كرطالي نورالدين [2]
جامعة ابن خلدون، تيارت [1]baghdaddrakad@gmail.com
جامعة ابن خلدون، تيارت [2] korta.nor@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/02/15	**تاريخ القبول: 2023/05/17**	**تاريخ النشر: 2023/06/30**

ملخص: إن التفكير في أسئلة وإشكالات النهضة العربية الحديثة يتطلب كنقطة انطلاق أولانية متابعة مختلف المشاريع المعرفية التي أُنجزت من قِبَل المفكرين العرب المعاصرين، للإجابة عن تلك الإشكاليات التي فرضتها التحولات المعرفية والسياسية والاجتماعية داخل الثقافة العربية. إلاَّ أن قراءتنا للفكر العربي المعاصر عموما، والفكر المغاربي على وجه التخصيص، تُوقفنا على الكثير من الظواهر والقضايا الإشكالية التي بقيت دون دراسة معمقة لفهم حقيقتها وكيفية اشتغالها. وفي مقدمتها، ظاهرة «اللاتواصل وسوء الفهم بين المفكرين المغاربة».

وعلى خلفية ذلك، سنحاول من خلال هذه الدراسة القيام بنوع من الحفر المعرفي في سؤال «التواصل» في الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر، من أجل تحليل أشكال العلاقة التي تجمع بين المفكرين المغاربة وآليات اشتغالها، فضلا عن ابراز الأهمية الفكرية لهذا التواصل.

الكلمات المفتاحية: الفكر المغاربي؛ التواصل؛ اللاتواصل؛ القطيعة المعرفية؛ الحوار.

Abstract: thinking about the questions and problems of the modern Arab renaissance requires, as a preliminary starting point, the follow-up of the various cognitive project that have been carried out by contemporary Arab thinkers, in order to answer those problems posed by the cognitive, political and social transformations within the Arab culture. However, our reading of contemporary Arab thought in general, and Maghreb thought in particular, we paused on many of the problematic phenomena and issues that remained without an in-depth study to understand their truth and how they operate, and in the forefront of which is the phenomenon of " lack of communication and misunderstanding among Maghrebains thinkers".

◆ المؤلف المرسل

Against this background, we will try through this study to carry out a kind cognitive drilling in the question of "communication" in the contemporary Maghreb philosophical discourse, in order to analyze the forms of the relationship that bring together Maghrebains thinkers and the mechanisms of their operation, as well as highlight the intellectual importance of this communication.

Keywords: Maghreb thought; communication; Non-contact; cognitive estrangement; dialogue.

مقدمة: في قراءة يوميات المشهد الفكري المغاربي المعاصر ثمة عدة إشكالات تاريخية ونظرية ومنهجية وفكرية..، «لم يُفكَّر فيها بعد»، إذا شئنا استعارة العبارة من المفكر محمد أركون. ولعل من بين الأسئلة التي نعتقد أنها تحتاج الى مزيد من الكشف والمتابعة، من أجل تجديد الرؤية إلى راهن الخطاب الفلسفي العربي، «سؤال التواصل»، وما يرتبط به من قضايا الحوار والاختلاف والتنوع. إن سؤال التواصل بشكله العام يرتبط بتلك العلاقة الجدلية بين «الأنا»، و«الآخر» المنتمي إلى نفس دائرة الفكر والثقافة، من خلال تحديد طبيعة هذه العلاقة، وهل هي قائمة على التجاوز، أم الاستمرارية، أم الإدانة والرفض، أم على التواصل الحواري؟.

يُتيح لنا البحث في إشكالية التواصل في الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر من معاينة صور العلاقة القائمة بين المفكرين داخل الثقافة الواحدة، والكشف عن مختلف الشروط التي أطَّرت هذه العلاقة، بغية تطوير عمليات التفكير في أسئلة وإشكالات النهضة العربية. وبالنظر إلى بنية هذا الخطاب الفلسفي، فإننا نلاحظ أنَّ سؤال التواصل داخل النسيج العام للتداول الفكري لم يُؤسس بعد، وأنَّ القطيعة المعرفية كانت حاضرة بشكل قوي، ويتجلى ذلك في غياب المناقشة المعرفية بين المفكرين المغاربة المعاصرين، بشأن تلك الأسئلة التي يفرضها الواقع العربي، وفي مقدمتها سؤال التأخر التاريخي، وغياب التنسيق القادر على إنجاز المشاريع بنوع من التكامل المعرفي والمنهجي من أجل تطوير فضاءات الفكر في الواقع العربي. هذا على الرغم من أنّ هؤلاء المفكرين يشتركون في أسئلة واحدة، وتواجههم تحديات واحدة. إن تعامل المفكرين المغاربة مع الفكر العربي كأجزاء متفرقة لا كوحدة متكاملة معرفياً ومنهجياً في إطار وحدة المشروع ووحدة الهدف دليل على «اللاتواصل» وسوء الفهم وغياب المصالحة المعرفية داخل بنية هذا الخطاب.

بناءً على هذا الوضع، يصح أن نطرح من جديد سؤال التواصل، فهو راهن اليوم، على مستوى النظر والممارسة. ولا بد أن يتواصل دون انقطاع، من أجل الوصول الى حل افضل للكثير من القضايا الفكرية والثقافية الراهنة ضمن الفضاء المغاربي الكبير، وتطوير الفكر الفلسفي العربي المعاصر، لأنه لا شيء أَدْعى الى موت الفكر العربي من غياب ثقافة التواصل داخل بنيته المعرفية. لأنَّ مشكلة التأخر لن يتم علاجُها بشعار واحد أو مشروع فكري واحد، بل أن نجاح المشاريع الفكرية العربية يتحدد في ضرورة تواصل الضمائر: «الأنا» و«الأنت»، بعيدا عن النظرة الإيديولوجية الضيقة — بالمعنى السلبي للكلمة — التي أطَّرت الحوار ووجَّهته في بعض الأحيان.

في ظل هذا الوضع، كيف يمكن للفكر المغاربي أن يؤصِّل لثقافة الحوار والتواصل العلمي اللائق بين المنتمين اليه ؟

وهل يمكن الوصول إلى نقاط التقارب بين المفكرين المغاربة المتحاورين بشأن الأسئلة التي تواجههم ؟.

أولا: التواصل وجدل المعرفي والإيديولوجي:

إنّ التفكير في الواقع الثقافي العربي عموما، والفكر المغاربي خصوصا، بشكل جدّي، قراءةً ومساءلةً ونقداً لقضاياه وإشكالياته، مسألة مهمة لم يعد من اللائق تأجيل الحديث عنها، في ظل وجود الكثير من الإشكاليات المعرفية والمنهجية التي تحاصر العقل العربي. فوضعية التأخر هذه في ايجاد صيغة لتفكيك بنية هذه الإشكاليات المعرفية يقتضي ابتداءً تفعيل حركة النقد فيه، لأن «حركة الفكر» منوطة «بحركة النقد فيه»، فالثاني شرط لحصول الأول، وتلك هي نقطة قوة أي فكر. فبمقدار شيوع النقد داخل الثقافة وقُدرتها على التجدد والتفاعل تكون أكثر غنى وقوة. وعلى العكس فبمقدار انغلاقها وجمودها تُصبح أكثر قابلية للسقوط والتداعي. ولا يمكن التأسيس لخطاب نهضوي وعقلاني في الفكر العربي إلاَّ بقدر ما نخرج من المواقف السلبية ومواقع ردود الأفعال غير المؤسَسة معرفيا وموضوعيا إلى حالة نُعزز فيها شروط التعامل العقلاني والموضوعي والنقدي مع الأفكار.

فالنقد، إذن، هو بعد أساسي للثقافة والفكر على حد سواء، بحيث أنّ الأفكار لا توجد في عزلة عن بعضها البعض، بل هي في تفاعلٍ مستمرٍ فيما بينها، حواراً واختلافاً وتفاعلاً وصراعاً وتفكيكاً وبناءً. وعليه تبدو الدعوة إلى تجديد الصلة بالممارسة النقدية في السياق الثقافي العربي- من دون أنْ يتحول هذا النقد إلى مظهر من مظاهر النفي

والنفي المتبادل بين المفكرين المغاربة- هو نقطة البداية الفعلية لتأسيس فكر عربي يقبل بثقافة التسامح والاختلاف، وتكوين معرفة موضوعية عن الآخر المغاير، معرفة تنبني على نقد معرفي، يُثري الفكر ويعيد بناءَهُ وتجديده، بل يزيدُه قوة ومناعة «فليس الأمر سلبا مطلقا، بالعكس إنه نشاط اختلاف يمكن أن يتكشف عن صورة من صور الفكر أو عن شكل من أشكال ممارسة الذات أو عن نمط من أنماط الوجود»[1].

ومن هنا، فإن النقد المعرفي وليس الإيديولوجي يبدو ضروريا؛ النقد المعرفي موجه نحو نقد طريقة الإنتاج النظري، أي «الفعل العقلي»، فهو يستهدف أنظمة المعرفة وآليات الفكر. وكما يرى الباحث المغربي محمد وقيدي، فإن « النقد المعرفي هو، من جهة أولى، طريق للكشف عن الأساس المعرفي الذي تقوم عليه الأطروحات النظرية التي تكون لها أيضا خلفيات ايديولوجية. وهو من جهة ثانية، سبيل لبناء تصور معرفي حول المادة التي تعلقت بها تلك الأطروحات الايديولوجية. النقد المعرفي أيضا تمهيد للمرور نحو فعل عقلي أخر يلغي، ضمن منهج تفكيره، كل سلف ويتجه الى البحث في مادة معرفته ضمن علاقة مباشرة بها »[2] .

وعلى هذا الأساس، فإن الخطاب العربي المعاصر إنَّما كان في حاجة إلى معايير النقد المعرفي والمراجعة المستمرة لأطروحاته ومرجعياته حتى يتمكن من تحويل الفكرة إلى قوة تغييرية في الحاضر العربي المعاصر. لذا فإنَّ تفعيل حركة النقد والمراجعة يقتضي إيجاد رؤية فكرية موحدة متعلقة بمشاكل جدية وهامة بين مفكرين لهم ماضٍ مشترك، وثقافة مشتركة، ولغة مشتركة، إذ أن الفكر له نسق متماسك بعناصر نظرية وفكرية وتاريخية قوية، في حين أن الإيديولوجيا هي الانغلاق في حقيقة واحدة تكون مناهضة للاختلاف والتعدد. وهكذا نجد أن الإيديولوجيا كانت حاضرة في أدبيات الكثير من المثقفين المغاربة. لماذا نقول ذلك ؟ عندما نتحدث عن الفكر المغربي ينبغي أن نُسجّل الملاحظة التالية: وهي أن مفهوم النقد الذي يتم توظيفه في دائرة فهم الأفكار وبيان التواصل والاستمرارية ما بين النظريات الفلسفية تحوَّل إلى آلية لإقصاء وإلغاء فكر الآخر المنتمي الى نفس دائرة الفكر والثقافة والتاريخ واللغة؛ فقد كشفت قراءتنا للخطاب الفلسفي المغاربي أن النقد الممارس من قبل المفكرين المغاربة لمختلف الأفكار والنظريات التي صيغت من قِبَل زملائهم حول أسئلة النهضة والتغيير، لم يكن

1- علي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط3، 2000، ص142.

2- محمد وقيدي ، بناء النظرية الفلسفية دراسات في الفلسفة العربية المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص181.

معرفيا، بقدر ما كان خاضعا لمبررات ايديولوجية تكشف عن نظرة جزئية منحازة قاصرة تحاول تأكيد الذات ورفض التكيف والتوفيق بين أطروحاتها الفكرية وما تم إنجازه داخل الفكر والثقافة العربيتين.

لا شك أن نجاح المشاريع الفكرية العربية يتحدد في ضرورة التواصل الفكري بين المثقفين المغاربة، لأن مشكلة التأخر لن يتم حلها برؤية واحدة ضيقة الأفق، أو شعار واحد، أو مشروع فكري واحد، بل لابدَّ من تضافر جهود جميع المفكرين فيما بينهم، وخَلْق حوار صريح وحقيقي يجمع بين أكثر من رؤية وأكثر من مشروع فكري، حوار أساسُه الاختلاف، وهو قائم على النقاش والتفاعل المستمر والجدل والمناظرة. وفي هذا السياق، يرى الباحث الجزائري الأستاذ «فارح مسرحي» أن من بين أسباب فشل المشاريع الفكرية العربية التباعد وعدم التنسيق بين هؤلاء المفكرين فيما بينهم، وهكذا لاحق الفشل أغلب المشاريع قبل أن تحقق أهدافها ونوايا أصحابها المُعْلنة في البداية، ولو أنّ هذا الفشل كان بدرجات متفاوتة من مشروع لآخر.[3]

يُمكن استخلاص خطّ التوجه الفكري السائد للنخب الفكرية العربية من خلال رصد الاتجاهات الفكرية من مسألة التراث. ففي اللحظة التي حصل فيها نوع من التواصل بيننا وبين العالم الأوروبي، منذ بداية القرن التاسع عشر، نشأ صراع النماذج في الفكر العربي بهدف تجاوز وضعية التأخر التاريخي العام، وتمكين الذات العربية من مواجهة ذاتها ومواجهة الاخر. وقد توزعت تيارات هذه المرحلة تبَعاً لتعدُد مداخل الإصلاح على الليبرالية والسلفية والاشتراكية والماركسية والقومية، على أنَّ القاسم المشترك بين هذه التيارات ظلَّ واحدا، وهو تحقيق النهضة العربية الحديثة.

لهذا، فإن الخطأ الذي وقعت فيه النخب العربية المتحمسة لبناء نظريات فلسفية متكاملة حول إصلاح واقع الفكر والثقافة داخل المجتمع العربي، تمثَّل في صراع التأويل على التراث من أجل امتلاكه كمعرفة، فكُلّ اتجاه فكري عمل على تأويله واستغلاله ضمن الصراع المجتمعي والايديولوجي الراهن، من أجل إثبات السبق الفكري أحيانا، ومن ثم إثبات امتلاك الفكر العربي، من دون التفكير في إمكانية إنجاز أي نوع من التواصل والاستمرارية القادرة على إنجاز المشروع التحديثي في فكرنا وتاريخنا. « وهكذا صار الفكر العربي، منذ أواسط القرن الماضي وإلى اليوم، ميدانا لصراع، لا يهدأ إلاَّ ليشتدَّ، بين مرجعيتين تراثية تنتمي إلى الماضي ومرجعية نهضوية

3- فارح مسرحي، المرجعية الفكرية لمشروع محمد أركون الحداثي أصولها وحدودها، الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط1، 2015، ص193.

تنتمي إلى المستقبل، تماما كما تتصارع في حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مظاهر كثيرة تعكس تلك الثنائية التي تطبع مختلف مرافق حياتنا المعاصرة، ثنائية «التقليدي» و«العصري». لقد بقيت هاتان المرجعيتان تتنافسان في حياتنا الفكرية، وربما داخل فكر الواحد منا، دون أن تستطيع الواحدة منهما، على مدى المائة وخمسين سنة الماضية، إقصاء الأخرى ولا استيعابها، والنتيجة هو ما نراه من تنازع بين خطابين يُقدّم كل منهما قراءة خاصة لِما هو كائن ولِمَا ينبغي أن يكون».[4]

لقد شكّل التراث حدثا فاصلاً وصانعاً لسؤال النهضة والتجديد. وأصبح البحث في تأويله موضع جدلٍ لا ينتهي. فالتراث هو ميدان الخلاف والاختلاف. وتاريخ الفكر الفلسفي العربي يُثبت أنّ الصراع على تأويل التراث كان ولا يزال قائما، من أجل فهمه وضبط شروط توظيفه للإفادة منه في عملية التغيير وتجاوز حالة التبعية والتخلف. وفي خضم النقاشات الدائرة حول أسباب التخلف، وفي سياق محاولة تدارك التأخر عن ركب الحداثة، برز المثقفين العرب وكان سؤالهم يدور بين حدَّين: تفوق الآخر وتخلف الذات، وهو سؤال أتاح للفكر العربي أن يتجِه صَوْب البحث عن أسباب الضعف والتقهقر التي يعيشها المجتمع العربي تجاه الأمم الغربية المتقدمة. ولكن صور تأويل التراث شكَّل أزمة نظرية ومنهجية ظلَّت تواجه المفكرين العرب. وتبرز ملامح هذه الأزمة في ادعاء كل تيار المعرفة التامة بالواقع الموضوعي وشروطه، فـ«المفكر العربي» وهو يحاول إثبات السبق والأفضلية لمشروعه وقراءته يحاول عادةً تثبيت قراءة معينة للتراث تُلغي القراءات الأخرى من منطلق أن القراءة التي قدمها الآخر للتراث ليست عقلانية وواقعية، مُنْزِلاً بذلك المختلف مَنزلةً أدنى من أجل أن يحافظ على فُرادة مشروعه المعرفي، ويُعلن المشروعية والصلاحية لقراءته التي لا يشاركُه فيها سواه، مما يجعل هذا المفكر يلجأ إلى آليات دفاعية معينة تقاوم ظهور كل قراءة بقصد استكشاف التراث، أو نقده وتقويمه. وهو الأمر الذي حوَّل معظم المشاريع الفكرية والمعرفية إلى معالجات إيديولوجية لم تعُد تصلُح لتغيير الواقع، غرضُها النفي والمصادرة والتجريح، وتفتقر لأدنى المبادئ التي يقوم عليها التواصل.

هكذا أصبح غياب الحوار والتواصل عنصرا من عناصر الأزمة الراهنة التي تكشف عن تناقض ومأزق الخطاب العربي الذي لم يفلح بعد في تأسيس فلسفة للتواصل نتجاوز معها عقلية الرفض والإقصاء والمصادرة نحو عقلية التنسيق والتفاعل والشراكة المعرفية.

4- محمد عابد الجابري، وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص11.

ولقد رأينا كيف أن المشاريع الفكرية العربية لم تصبح أداة للنهوض وحركات التجديد والتغيير، بل كانت أداة للتنابز والتفريق، وبالتالي فإنّ فشل الخطاب العربي بمختلف أصنافه السلفي والليبرالي والقومي والاشتراكي والفلسفي والسياسي في خلق الفعالية المعرفية والنظرية إنما ينتهي إلى عدم قدرة هذا الخطاب في الجمع بين قضايا وثنائيات ومرجعيات تعمل على تكوين فلسفة عربية معاصرة « ولذلك أصبحنا أمام المشاريع النقدية الفردية التي يعرض فيها المفكر عن تجارب معاصريه من بني جلدته بدل المشاريع النقدية الجماعية التي يلتفت فيها المفكر الواحد إلى تجارب معاصريه ».[5]

إن سؤال التواصل إنما ينبغي أن يشتغل ضمن علاقة حوارية أساسها التفاعل والاستمرارية والتواصل الإيجابي والندية في الحوار دون اللجوء إلى آليات في الدفاع عن مكانة متميزة للذات تهمل نصوص ومواقف علمية للآخر. يقول المفكر صادق جلال العظم في شأن التواصل الذي يراه ضروريا من أجل بلوة رؤية مشتركة تقوم على اعتبار الآخر لا إلغائه: « حين أكتب وأفكر وأحلل وأناقش وأطرح الآراء والأحكام، أحتاج إلى من أحاوره وأنتقده وأتناقض معه أحيانا وأتفق معه أحيانا أخرى جزئيا أو كليا، كما أُفضّل الانطلاق مما طرحه غيري حول مسألة من المسائل وأن آخذ بعين الاعتبار سلبا أو إيجابا ما توصل إليه الآخرون من نتائج قد أستند إليها وأختلف معها...ولا أرى في هذا كله إلا ميزة عالية ومتقدمة لأني أعي جيدا أني لا أعمل في الفراغ ولا أتصرف عموما وكأنني أنطلق من نقطة الصفر»[6] .

الواقع أنّ الفكر المغاربي المعاصر يعيش أزمة تواصل، وتتجلى ملامح ذلك في غياب التنسيق والتعاون بين المشتغلين على الفكر العربي المعاصر، فالمفكر العربي ليس لديه ثقافة التواصل مع مثقفي جيله والجيل الذي يليه، بالكاد تجد مفكرا انطلَق مما طرحه غيره أو أخذ ما توصل إليه الآخرون من نتائج، فكلُّ مفكر إلا ونراه انطلق من نقطة الصفر، دون أن يفتح المجال لتشكل إمكانيات جديدة للتفكير حول الأسئلة المصيرية التي تواجه مستقبل الثقافة العربية، ودون أن يقرأ ويتابع الإنتاج الفكري الذي قدَّمه مثقفي عصره الذين يشتركون معه في نفس الأسئلة والتحديات. نُسجل هنا

5- محمد آيت حمو، أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2012،1، ص263.

6- جورج طرابيشي، هرطقات2 عن العلمانية كإشكالية إسلامية .إسلامية، دار الساقي، ط1، 2008، ص161.

شهادة المفكر المصري حسن حنفي الذي يقول: « يبدأ كل جيل وينتهي، ثم يبدأ الجيل الثاني، كما بدأ الأول من الصفر »[7].

وهكذا نلاحظ أن الأزمة التي يعيشها الفكر العربي، ترجع إلى غياب التفاعل الجدلي بين المثقفين العرب، وعدم استئناف ومتابعة المحاولات الأولى الرائدة والعمل على إعادة إنتاجها، فمشكلة المفكر العربي أنه يتجاوز كل القراءات التي قدمها غيره لحل أزمة العالم العربي دون قدرته على أن يتابع في مشروعه الجديد ما بدأه غيره، من أجل تطويره وتوسيعه، بعمل جديد مغاير.

نورد هذا النص للمفكر «محمد أركون» الذي يشير فيه إلى أفضلية مشروعه الفكري. يقول أركون: « سوف يكتشف القارئ من خلال هذه الفصول الجديدة مدى المتانة الفكرية والعلمية والسياسية للاستراتيجية المعرفية التي بلورتها من خلال العلم الذي دشنته في بداية السبعينات في القرن الماضي تحت عنوان:«الاسلاميات التطبيقية»(...) ومعلوم أن هذا العلم الجديد الذي لم يسمع به العرب ولا المسلمون حتى الآن يفتح كل الأضابير القديمة المغلقة ويعيد فهم التراث الإسلامي بشكل أصول الظاهرة الدينية وتحولاتها ووظائفها المتغيرة في كل المجتمعات البشرية».[8]. ولكن أليس هذا الخيار الفكري الذي قال به أركون، يندرج هو أيضا في التصورات الإيديولوجية ؟

وبالرغم من احتراز أركون من الذاتية، وادعاءه الموضوعية، ومع ذلك نجده يقع في المحاذير نفسها التي نبه إليها، لذلك فهو يحاول أن يظهر القراءة التي قدمها للفكر الإسلامي، كمشروع كبير، لا يمكن للآخرين أن يعرضوا عنه، بل ينبغي الانخراط في هذه القراءة التي صاغها وإنجاز الحلول التي تصورها حول قضايا وإشكالات الفكر العربي- الإسلامي، فهو يعتقد أن نقطة انطلاق مشروع النهضة ترتكز على أساس ما قدمه من أدوات مفهومية جديدة لتحليل ومقاربة الظاهرة الإسلامية، من خلال مشروعه الهام «نقد العقل الديني». إن أركون لا يعتبر مشروعه مثل كل المشاريع التي أنجزت في الفكر العربي، فهو يعتقد أن محاولات زملائه المفكرين لمقاربة الظاهرة الإسلامية تفتقر الى وضوح الرؤية، وتغيب عنها المناهج الحديثة من ألسنية وتاريخية وتفكيكية وبنيوية، لذا ينبغي تجاوزها، فهو يرى في «الاسلاميات التطبيقية» مشروع مطلق صالح وغير

7- محمد الشيخ، الفلسفة والترجمة في الفكر العربي، ضمن: الثقافة العربية في القرن العشرين حصيلة أولية، إشراف: عبد الإله بلقزيز، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2013، ص641.

8 - فارح مسرحي، مرجع سابق، ص ص261، 262

قابل للتجاوز، متجاهلا بذلك حقيقة أن المعرفة لا تتجاوز حدود النسبي الذي يقع في الزمان. من هنا أزمة الفكر العربي في التحرر من نزعة التعالي والتمركز حول الذات، وعدم القدرة على التفتح على حوار الآخر.

مشكلة المفكر العربي أنه لا يعترف بالإنتاج المعرفي لزملائه في المهنة والتخصص، ولا يقر بأنه يمكن للعقول الأخرى أن تتوصل إلى نفس المصداقية والصحة التي وصل هو إليها، وهكذا نجد أنفسنا أمام ظاهرة تمثل جانب سلبي من الفكر الإسلامي في كل مراحله، نعني بها «القطيعة المعرفية». يقول أركون: « يجب على المؤرخين أن يؤرخوا للنسيان في الفكر الإسلامي كظاهرة مستمرة ومتفاقمة منذ وفاة ابن رشد. لقد ترجم فصل المقال إلى العبرية في أواخر القرن الثالث عشر، ومع ذلك فإن ابن خلدون لم يشر إلى الكتاب مع أنه كان من المطلعين على مؤلفات ابن رشد؛ ولم يعتن أحد من المسلمين بتحقيق الكتاب ودراسته إلى أن جاء المستشرق «م.ج. موليرM.J.Muller» الذي نشره لأول مرة عام 1859، معتمدا على مخطوط واحد؛ ثم أعاد تحقيقه الأستاذ ج.ف. حوراني بعد قرن من الطبعة الأولى(1959)».[9]

تدل هذه الظاهرة التاريخية الثقافية التي تسكن عقل المفكرين العرب المحدثين والمعاصرين، على مدى القطيعة المعرفية التي أصابت الفكر الإسلامي، وتظهر هذه القطيعة في عدم قراءة المثقفين العرب لمؤلفات بعضهم البعض، الأمر الذي جعل أركون يدعو المؤرخين الى التأريخ لظاهرة النسيان، ولكن إذا كانت هذه المطالبة مشروعة وضرورية في السياق الثقافي العربي الإسلامي، فإنه يصح لنا في المقابل أن نطالب أركون بضرورة أن يطالع التراث العربي على مهل وبصورة هادئة بعيدا عن الأحكام المسبقة والتصنيفات الجاهزة، وإلا كيف نفسر تلك الملاحظات التي أوردها أركون على كتاب الجابري « نقد العقل العربي »، واصفا إياه بأنه لم يتحرر في شروحه وتأويلاته من تلبسات الذهنوية والقومية والعنصرية.[10]

إن ظاهرة القطيعة المعرفية وغياب التواصل لها حضور كبير في أدبيات بعض المثقفين، وهي آخذة في الاتساع في المرحلة الراهنة من الفكر المغاربي المعاصر، فإذا تأملنا نوعية العلاقات التي تربط بين هذه المشاريع فيما بينها، فإننا نلاحظ أن التواصل ضعيف أو شبه منعدم، فرغم المكانة المعرفية التي تحتلها هذه المشاريع

9- محمد أركون، من فيصل التفرقة إلى فصل المقال.. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، تر: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط2، 1995، صII

10- محمد أركون، من فيصل التفرقة إلى فصل المقال، مرجع سابق، صXIV

المعرفية في الفكر الفلسفي المغاربي، إلا أنها بقيت غريبة ولم يتم التركيز عليها كأداة تؤدي إلى تكوين الثقافة وتحقيق النهضة العربية. يتحدث أركون بكل أسف عن هذه الظاهرة السلبية «... وعندما يتفرغ الباحث لهذا العمل بنية خالصة وتحمس لدعوة فكرية ثقافية، إذ به يجد عددا من زملائه المثقفين يتجاهلون ما يصدر وينشر ويضربون صفحا عما قرأوا أو قرروا ألا يقرأوا ، ولا يشيرون مرة واحدة لا بالقبول ولا بالرفض إلى اجتهاد يستحق الذكر والتأييد؛ وإذا بفريق ثان من العلماء المرموقين يثورون ويهاجمون ويفترون كذبا ويحمّلون الكاتب ما لم يخطر بباله مرة واحدة وما لم يقصده البتة؛ ويرددون ذلك في المجلات والجرائد المغذية للمخيال الشعبوي... ».[1]

وهنا تبرز مسألة تستدعي قلقا عميقا، تتعلق بانزلاق المثقفين المغاربة إلى موقف ينصرف عن ثقافة التواصل نهائيا، فالمثقف العربي لا يمتلك شجاعة الاعتراف بفضل الآخرين، أو الإعلان أن عمله هذا استئناف لما بدأه قبله مفكرين آخرين. وهذا ما أشار إليه «عبد الإله بلقزيز» الذي يستنكر إحجام «الجابري» في الغالب الأعم من كتبه، عن التصريح بالمصادر والمراجع العربية التي اعتمدها في كتابة ما يكتبه، فهو عندما يتكلم عن الثقافة العربية فإنه لا يشير إلى مساهمات باحثين عرب معاصرين عملوا طويلا، في ميدان تاريخ الفكر العربي ودراسة التراث، وهؤلاء استفاد منهم الجابري كثيرا في بناء فرضياته، الأمثلة على ذلك كثيرة في أعماله، مثل تجاهله لمجهودات أحمد أمين، الذي أخذ عنه تقسيمه الثقافة العربية الكلاسيكية، وتجاهله أيضا عبد الرحمان بدوي في كل ما كتبه عن الفلسفة وعلم الكلام والتصوف والنزعات الباطنة في الإسلام، وعدم الإشارة إليه مع الاكتفاء بالإشارة إليه وفي مسائل جزئية، حيث لا موجب للإشارة، ثم تجاهل فهمي جدعان في ما كتبه عن محنة بن حنبل مع أنه استظهر عمله وحذاه حذو النعل بالنعل، مع إشارات رمزية إليه في الهوامش؛ ثم عدم الإشارة إلى سبق ناصيف نصار في استخدام مفاهيم العقيدة والغنيمة والقبيلة في تحليل المجال السياسي الإسلامي.[2]

وإذا كان محمد أركون يقول بأن كتاب هشام جعيط «الفتنة» لا يرقى إلى المستوى الذي ننشده، لأنه لا يمشي في اتجاه أرخنة هذا الحدث الكبير الذي غطت عليه كتابات

1- مرجع نفسه، صXIII

2- عبد الإله بلقزيز، نقد التراث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص355. ص355.

المؤرخين القدامى في العصرين الأموي والعباسي.[1] فإنه بالمقابل، يتحدث بنوع من الإعجاب والسعادة عن زميله عبد الله العروي، إذ يجد فيه رفيق درب، وبخاصة في كتابه «مفهوم العقل»، الذي يتفق مع كتاب أركون «نقد العقل الإسلامي»، يقول أركون: « بعد أن اطلعت على كتابه وجدت أن نقاط الاتفاق بيننا في ما يخص التوجهات الأساسية في النقد عديدة جدا إلى درجة أنني دهشت لأنه لم يشر إلى أي كتاب من كتبي، أو إلى أي فكرة من أفكاري. أقول ذلك وبخاصة أنه يتعرض في كتابه السابق الذكر للعديد من الموضوعات والمؤلفين (أو المفكرين) والمناقشات المنهجية والإبستيمولوجية التي كانت قد شغلتني طويلا في الماضي. كذلك الأمر فإن العروي لا يشير من قريب أو بعيد إلى أعمال زميله في الجامعة محمد عابد الجابري. أقول ذلك خاصة وأنَّ أعماله في « نقد العقل العربي» معروفة ومشهورة ».[2].

وبصيغة السؤال الاستنكاري يتساءل الكاتب «محمد آيت حمو» في كتابه « أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر» :

فهل يعقل أن يكتب المؤرخ المغربي عبد الله العروي مفهوم العقل ولا ينبس ببنت شفة عن مشروع نقد العقل العربي للفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري ؟.

وهل يعقل أن يكتب الباحث المغربي «علي أومليل» السلطة الثقافية والسلطة السياسية ولا ينبس ببنت شفة عن كتاب المثقفون في الحضارة العربية الإسلامية للفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري رغم أن كتاب الأستاذ علي أومليل من ألفه إلى يائه ردود على كتاب الأستاذ محمد عابد الجابري ؟.[3]

وإذا كان أومليل قد مارس فعل الإقصاء لزميله محمد عابد الجابري، فإن هذا الأخير وبنفس منطق الإلغاء والرفض قد مارس نوعا من الإقصاء ضد المفكر محمد عزيز الحبابي بدعوى أنه كتب بلغة أجنبية.[4]

1- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم، تر: هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، د(ط، س)، ص55.

2- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، مرجع سابق، ص56.

3محمد آيت حمو، مرجع سابق، ص270.

4- محمد عزيزو، "محمد عزيز الحبابي.. الشخصانية: في البحث عن أصالة فلسفية"، ضمن كتاب: الفلسفة العربية المعاصرة تحولات الخطاب من الجمود التاريخي إلى مآزق الثقافة والإيديولوجيا،

والعجيب في الأمر أن بعض المثقفين المغاربة الذين يشيدون في مواطن كثيرة من مؤلفاتهم على ضرورة خلق تواصل وتفاعل حقيقيين مع بعضهم البعض تجدهم يمارسون إهمالا مقصودا لمؤلفات مثقفي عصرهم، بدعاوى مختلفة وهي في الأغلب الأعم تبريرات متخيلة، غير مؤسسة على معطيات معرفية أو عقلانية، فها هو أركون سقط في النهاية في المحاذير نفسها التي نبّه إليها ، فمن يقرأ كتاباته يجدها عامرة بالدعوة إلى الحوار والتواصل الفكري، فهو شديد التأكيد في مناسبات عديدة على ضرورة إقامة تواصل قادر على أن يجمع اختلافاتنا في بوتقة واحدة، كما نجده يعيب على المثقفين عدم قراءتهم لمؤلفات بعضهم، فهذا أركون الذي يعتبر من أشهر المفكرين العرب المنادين بالاختلاف والحوار يقول: « إني أسف لأن الوقت كان دائما ينقصني فلا أستطيع تحقيق تلك الأمنية القديمة التي كانت دائما تراودني. ففي كل مرة كان يصدر فيها كتاب مهم لأحد هؤلاء المثقفين كنت أتمنى أن أقطع الصمت وأكتب عنه مراجعة نقدية شمولية، كنت أتمنى لو أن الوقت يساعدني لكي أعلق بشكل مطول على أعمال خمسة من المفكرين المغاربة: محمد طالبي، هشام جعيط، محمد عابد الجابري، محمد قبلي، عبد الله العروي ».[1]

إن هذه الملاحظة التي أوردها أركون، تدل بما لا يدع مجالا للشك، على أن ثقافة الحوار والجدل والمناظرة لم تتأرضن بعد في واقع العرب، بحيث لم تستطع النخب المثقفة عندنا ترسيخ الوعي بأهمية التواصل، والتعاون والعمل المشترك فيما بينهم، الأمر الذي من شأنه أن يفضي إلى المزيد من التفريق والاختلاف والانغلاق والجمود، وهو « ما يقودنا الى الحديث عن قضية خطيرة في الفكر العربي المعاصر عموما والفكر المغربي خصوصا، ونعني بها قضية الحوار الغائب الأكبر بين المثقفين المغاربة والعرب، والحال أن مفارقاتنا لأليمة كثيرة، وأن أشدها مضاضة يقوم في كوننا نكتب كتبا لا وجودا لها، أي لا تأثير ولا إشعاع. وكيف لها أن توجد والثقافة الرابطة بيننا هي ثقافة اللاحوار، بل وحتى اللاقراءة، بمعنى أن لا أحد يقرأ لأحد، وبالتالي لا أحد يحاور غيره على ضوء ما قرأ له ».[2]

يمكن القول أن هذا الإقصاء المتبادل بين المفكرين المغاربة المعاصرين، ورفض أي شكل من أشكال التواصل الإيجابي فيما بينهم لا يخضع لمقاييس علمية، ولا تحركه

(مجموعة من الأكاديميين العرب)، تحرير: اسماعيل مهنانة، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، الجزائر، ط1، 2014، ص161.

1- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، مرجع سابق، ص56.

2- محمد آيت حمو، مرجع سابق، ص262.

الموضوعية، وإن ادعوا غير ذلك، قدر ما هو مؤطر بحساسيات قومية، أو سيكولوجية أو سياسية أو لغوية، وأحيانا يخفي هذا الإقصاء منطلقات وحساسيات أخرى في الفهم تكون مؤسسة على نوع من التمركز الذاتي، الأمر الذي يحول دون التأسيس لمشروع النهوض في العالم العربي.

ثانيا: أخلاقيات الحوار والتواصل: من أجل إعادة ترتيب العلاقة

إن استمرار غياب التواصل بين المثقفين المغاربة يدل على أمرين:

الأول: تقلص السماحة تجاه الآخر المختلف، فمن عيوب التفكير التي انتشرت بين المثقفين المغاربة غياب ثقافة الحوار والتخاطب والتواصل، فهم أقرب ما يكونون للصدام، إذ لا تربطهم علاقة التعاون والتواصل، بل تشتد بينهم الصراعات الشديدة، وأحيانا الانحطاط إلى مستوى الافتراء وتحميل الآخر ما لم يدعيه وما لم ينطق به. « بمعنى أننا في حواراتنا الداخلية أصبحنا محكومين بهذا العيب الكبير بشكل مهول، بل أن الآراء المختلفة داخل كل جبهة أصبحت تتناحر بروح لا تعبر عن شيء مثل تعبيرها عن تقلص السماحة ».[1]

يمكن الوقوف على أزمة التواصل في الخطاب الفلسفي العربي في الموقف من الآخر الذي ينتمي هو أيضا الى نفس دائرة الفكر والثقافة. إن المفكرين المغاربة لم يؤسسوا بعد فلسفة للتواصل تقوم على التفاعل والحوار والمناظرة، إذ « نجد الواحد من أهل الفكر المغاربة - كما يقول طه عبد الرحمان - لا يحاور غيره، فهو إما يعتزل في برجه، ظانا أن قوله هو القول الفصل في كل شيء، وإما يتعمد الشذوذ في أقواله، مطبقا القاعدة السارية »خالف تعرف « وإما أنه إذا اعترض على غيره أبهم اسمه وأخفى عنوانه كما لو أن التصريح بالاسم أو ذكر العنوان تنقيص من منزلته، وإما أنه إذا اعترض عليه غيره أعرض عن الجواب وحث أصحابه على الإعراض عنه كما لو أن في الرد على الاعتراض قدحا في علمه ».[2]

إن ما يهمنا من كلام طه عبد الرحمان هاهنا، أن الفكر المغاربي لم يتسع بعد لاستيعاب كل أشكال التنوع الفكري والثقافي، بالرغم من تعدد المشاريع والقراءات، وهذا نتيجة الموقف الإيديولوجي المسبق الذي نجده عند أصحاب هذه المشاريع الفكرية.

1- طارق حجي، نقد العقل العربي من عيوب تفكيرنا المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص24.
2- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2008، ص09.

فالمثقفين المغاربة لا يشاركون بعضهم البعض فعل التفكير والنقد ولا يسعون لخلق فضاء للتعاون والتنسيق، على العكس من ذلك تماما، تجدهم يدعون الأفضلية لمشاريعهم وأنهم يقدمون حلولا جديدة لم يسبقهم إليها أحد، وأنّ مشروعهم مطلق وغير قابل للتجاوز، فمن النادر أن تجد مفكرا عربيا يمتلك شجاعة الاعتراف بأخطائه، أو بحسنات الغير، بل تجده يشيد بتفوق مشروعه وتميزه، وفي الوقت نفسه يمارس نوعا من الإقصاء والتجاهل ضد فكر الآخر، فقط لأن أفكار هذا الكاتب تبدو مضادة لأفكاره، أي ما كان موافقا لآرائه وتصوراته قبله، وما كان مخالفا لها قوبل بالرفض والتغييب، وأحيانا تجد مفكرا عربيا يهاجم مفكرا آخر دون ذكر تسميته، من دون أن يناقش أفكاره، أو تجد بعض الكتب أغضبت العديدين فجاءت ردودهم مبنية على تبريرات ايديولوجية .لأن ما يقرره هذا الكاتب أو المفكر لا يتوافق وآراء هذا المفكر أو ذاك.

الثاني: سيطرة الايديولوجي على المعرفي؛ إذ نجد الحوار أخذ شكل مواجهة مصطنعة بين المثقفين المغاربة، الذين مازالوا سجناء لرؤى ايديولوجية ظرفية جامحة تؤكد عجزهم عن القبول بثقافة الاختلاف والتنوع، وهو الأمر الذي ينتج معه غياب قول فلسفي عربي مبدع وناقد، مؤسس على علاقة حوارية تقوم على أسس من النقاش والتفاهم والندية في البحث عن سبل النهوض بهذا الفكر لا على أساس التراشق الايديولوجي، ومن دون اللجوء أيضا إلى الأحكام المجردة المسبقة والقناعات الراسخة والتبريرات الايديولوجية المتخيلة الموجهة ضد فكر الآخر، والتي تخرج بالحوار عن إطار الموضوعية والعلمية والسقوط في منطق سجالي لا نقدي، يحاول أن يختزل الآخر إلى نمط يوافق منظوره وتصوره، إذ مازال الفكر العربي لم يتحرر من تأثيرات الأيديولوجيا في معالجة قضاياه وإشكالياته، وهذه المسألة من أكبر العوائق التي ينبغي نقدها وتجاوزها بهدف تخطي الانقسامات وإلغاء الصراعات والمصالح الظرفية الضيقة لصالح الفكر «إذ الفكر لا ينمو ويتقدم بالحجب والمحو والإلغاء، وإنما بإنصاف السابقين وتطهير أعمالهم ومساهماتهم - حتى مع نقدها - والبناء عليها».[1] بهذا المعنى، فإن الفكر لا يبدع إلا في ظل حضور منهج الحوار العقلي والمساءلة النقدية في الأفكار، بغية اكتشاف العناصر المعرفية عند الآخر، وإعطاء الأولوية لما هو مشترك على حساب الأحادية الفكرية التي تميز موقف بعض المثقفين المغاربة المعاصرين، وهذا يتطلب أيضا، كسر فكرة الأنا المتعالية التي تقوم على إلغاء الآخر ونفيه، والإيمان المطلق بفرديتها والإشادة بتفوقها وتميزها.

1- عبد الإله بلقزيز، مرجع سابق، ص357.

وبصياغة أخرى يمكن القول أن تعامل المفكرين المغاربة مع إنتاج زملائهم يفتقد للضوابط القيمية الواقعية والعلمية وتنقصه أيضا الخبرة بالآخر. كما أن الإقصاء المتبادل بينهم لا يجد ما يبرره من معايير برهانية وحجج عقلانية سوى أنه يستجيب لدوافع ذاتية تمليها نزعة التمركز الذاتي التي أطرت مشاريعهم المعرفية؛ فمَنْ يُتابع الخط المعرفي للمثقفين المغاربة يجدهم قد اكتفوا في الغالب بالاختزال والإسقاط والاصطفاء والإلغاء والحذف، دون النقد والتحليل، والدخول في قراءات هادئة ومقاربات جديدة تفتح الأفاق، وتدعو للتفتح على حوار الآخر. « وهكذا بقي الفيلسوف أو المفكر المغربي المعاصر الممارس للفلسفة منزويا حتى عن زملائه في المهنة والتخصص، وهذه ظاهرة سلبية تنذر بالتشتت في المجال الفكري ولا تُبشّر بالتراكم وتوحي بالانغلاق والتقوقع ولا تشي بالانفتاح والتناظر ».[1]. لذا، فالعلاقة التي ينبغي أن تجمع بين المثقفين المغاربة تكون قائمة على الإنصات والحوار والاحترام المتبادل بدل النبذ والإقصاء والتغريب، أي ضرورة تأسيس فلسفة الانفتاح والتواصل وليس الانغلاق. ولكي يكون هذا التواصل جديا وناجحا ينبغي نشر الوعي بإمكانية حدوث الاختلافات، إذ الحوار يشترط الاختلاف « إننا لا ندخل في الحوار، إلا ونحن مختلفان، بل إننا لا نتحاور إلا ونحن ضدان، لأن الضدين هما المختلفان المتقابلان، والحوار لا يكون إلا بين مختلفين متقابلين، أحدهما يطلق عليه اسم «المدعي» وهو الذي يقول برأي مخصوص ويعتقده، والثاني يطلق عليه اسم «المعترض » وهو الذي لا يقول بهذا الرأي ولا يعتقده ».[2] لذلك فمن غير الممكن الحديث عن حوار فعال وإيجابي في ظل تشبث كل مفكر بيقينيته المطلقة، ومصادرة حق الآخر في الاختلاف، بل الواجب العمل على تفعيل مبدأ الاختلاف، الذي يتطلب من المتحاورين الاحترام المتبادل وعدم ازدراء الآخر والاعتراف بالمغايرة والتعددية بعيدا عن فوقية «الأنا» ودونية «الآخر».

إن إعادة ترتيب العلاقة بين الذوات العربية المفكرة، وإزالة الحاجز الذهني الذي يفصل بينهم، رهن تأصيل الممارسة الحوارية التي تعتبر أعلى درجات العلاقة بين هذه الذوات، ذلك أن التمايز والاختلاف في الفهم والقراءة والتأويل، لا يمنع مطلقا من وجود نوع من التكامل المعرفي بين المفكرين المغاربة، فهو أمر طبيعي، وشيء ايجابي، بل

1- محمد آيت حمو، مرجع سابق، ص270.
2- طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص28.

وحتمي، يدل على المعنى التشاركي لا على المعنى التصادمي، « ذلك أن الفلسفة لا يمكن أن تتأسس من جديد إلا على أساس فكر حواري لا على أساس فكر قطعي ».[1]

قد ينجح الفكر العربي في تجاوز ما يمكن تسميته بـ«اللاتواصل وسوء الفهم» عبر التنسيق والإغناء والتحاور، دون أن تفقد المشاريع المعرفية مكانتها، لأن نجاح مشروع ما أو فكرة ما غير مرتبط بما يقترحه مفكر لوحده، بل ذات صفة علائقية تتمثل بالعلاقات الحوارية داخل كل خطاب، فالفكر في المحصلة هو تفاعل بين عدة نظريات ومرجعيات وقراءات، يرسم علاقة توتر ايجابي بين الوعي والواقع، بين الذات والموضوع، بين الحاضر والمستقبل، برؤية جديدة، متحررة من ثقل الإيديولوجيا، ونزعة التعالي والنرجسية. إن التثاقف مع الآخر المختلف، هو الشكل العملي الأوسع للانفتاح، وهذا التثاقف إنما يرتبط تأسيسه بالحوار والمناظرة والتفاعل المستمر وقبول الاختلاف والتمايز.

إن تجاوز الانغلاق والوثوقية التي وقع فكرنا في أسرها، يتطلب تجديد الصلة بالممارسة الحجاجية والتناظر الكلامي والتفاعل المستمر، لأن ذلك «يقيم الاختلاف والتفاعل الحواري التي اغتنى بها تراثنا الفكري والثقافي العربي، حيث كانت العملية الحجاجية تدار بين الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأصوليين والبلاغيين واللغويين والمفسرين، على مختلف مشاربهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم الثقافية بكل وعي ورقي، على الوجه الذي أدى إلى تعميم المعرفة، وتعميم الثقافة الحوارية لدى المتلقين، في تلك الحقبة الزمنية».[2]

إن فلسفة التواصل تعني اعترافا بالآخر المختلف في فكره وقراءته للتاريخ والواقع، من دون إقصاء او إلغاء أو تحريم أو تخوين أو تأثيم. فالحوار لا معنى له في ظل الاستبداد بالرأي وفرضه بالقوة. وإنّ الحوار لا يكون مثمراً وفعالاً إلاّ إذا استند على قاعدة احترام التعدد والاختلاف والتنوع بغية الوصول إلى العقلانية التي ستكون مسألة ملحة لبلوغ غاية التسامح بين المفكرين. لهذا فإنه لابد من مصالحة الذات ومباشرة حوار عقلاني بين مشاريع معرفية تحركها أسئلة واحدة، وتواجهها تحديات واحدة، من أجل إيجاد رؤية مشتركة بينهم حول الأسئلة المصيرية التي تواجههم.

1- محمد وقيدي، مرجع سابق، ص181.

2- محمد بن سعد الدكان، الدفاع عن الأفكار تكوين ملكة الحجاج والتناظر الفكري، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص13.

ولتجاوز هذه الظاهرة السلبية التي تهدد مستقبل الفكر العربي، ينبغي تحرير النقاش أو الحوار الحاصل بين المفكرين المغاربة من ثقل وضغط التصورات الإيديولوجية التي كانت قد كوَّنت المخيال الجماعي لديهم منذ بدء الانشغال بسؤال التأخر التاريخي. والتوصل أخيرا إلى المصالحة المعرفية ، من أجل الوصول إلى نقاط التقارب بين المفكرين المغاربة المتحاورين بشأن الأسئلة العملية والنظرية التي تواجههم، فمن غير المعقول أن نظل منشغلين بإثارة ذلك السؤال النمطي: أهو معي ؟ أم ضدي ؟ دون القدرة على إنتاج الاختلاف. فالاختلاف ليس تعارض بين نقيضين؛ إنما هو تأسيس لرؤية جديدة في الفهم والتحليل والقراءة. لذا فإن عقل التواصل في الفكر العربي إنما يتطلب النظر إليه برؤية شمولية تشترط تكاثف جهود المثقفين لبلورة صيغة جامعة حول أسئلة الراهن العربي، من دون السقوط في لعبة تقديس أنموذج على آخر، وبعيدا عن كل وهم إيديولوجي أجّل ولا يزال، مشروع إعادة بناء الفكر العربي وتجديده.

الخاتمة:

جوهر المسألة أن الفكر الفلسفي المغاربي المعاصر لا يمكن إعادة بناءه وتجديد دون تأسيس نظرية تواصلية حجاجية تتخطى فكرة الاعتقاد الصارم بقداسة الأنموذج أو المشروع أو التوجه الفكري. ينبغي أن يحدث اللقاء الفكري بين المفكرين المغاربة من أجل الوصول إلى رؤية مشتركة موحدة بشأن الراهن العربي، فهناك الكثير من النماذج المهمة والمشرقة في الفضاء المغاربي لابد أن نعيد لها الاعتبار من دون القطع معها نهائيا؛ أي دون أن تمارس عليها أفعال الإقصاء والتغييب، لأن الذي يلزمنا في هذه اللحظة الراهنة، هو النضال من أجل تأصيل ثقافة الاختلاف والتسامح؛ فالحوار لا يوجد إلا حيث يوجد الاختلاف، والتواصل قائم على اعتبار الآخر لا إلغائه.

الحقيقة أن تخليص الفكر العربي المعاصر مما يمكن تسميته بـ«أزمة التواصل» يقتضي أولاً، كسر فكرة «الأنا» المتعالية، وثانيا، التزام الفكر النقدي الذي لا يلبي الرغبة الذاتية، وثالثا، النظر إلى الاختلاف داخل دائرة الفكر بشكل إيجابي، لأن حل الأزمة التي تعيشها الأمة العربية لا يتم بمشروع فكري واحد، بل إن حلها هو ثمرة التوحيد بين مختلف المشاريع الفكرية، فالاختلاف والتواصل والتفاعل المستمر والندية في البحث واحترام المغاير هو الذي يصنع الفكر.

قائمة المراجع:

– أركون محمد، قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم، تر: هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د (ط، س).

– أركون محمد، من فيصل التفرقة إلى فصل المقال... أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط2، 1995.

– آيت حمو محمد، أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر، دار الأمان، الرباط / منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.

– بلقزيز عبد الإله، نقد التراث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2014.

– الجابري محمد عابد، وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

– حجّي طارق، نقد العقل العربي من عيوب تفكيرنا المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، د(س).

– حرب علي، نقد الحقيقة، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000.

– الدكان محمد بن سعد، الدفاع عن الأفكار، تكوين ملكة الحجاج والتناظر الفكري، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2014.

– الشيخ محمد، الفلسفة والترجمة في الفكر العربي في: الثقافة العربية في القرن العشرين حصيلة أولية، إشراف: عبد الاله بلقزيز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2013.

– طرابيشي جورج، هرطقات2 عن العلمانية كإشكالية إسلامية – إسلامية، دار الساقي بالاشتراك مع رابطة العقلانيين العرب، ط1، 2008.

– طه عبد الرحمن، (2008). الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2008.

– مجموعة مؤلفين، الفلسفة العربية المعاصرة تحولات الخطاب من الجمود التاريخي إلى مآزق الثقافة والإيديولوجيا، تحرير: اسماعيل مهنانة، منشورات الاختلاف، الجزائر / منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2014.

- مسرحي فارح، المرجعية الفكرية لمشروع محمد أركون الحداثي أصولها وحدودها، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، ط1، 2015.

- وقيدي محمد، بناء النظرية الفلسفية دراسات في الفلسفة العربية المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1990.